The Arab Journal of Psychiatry (2009) Vol.20 NO.1 Page (78- 83)

تاريخ الطب النفسي

بدايات الطب النفسي المعاصر في العراق ،قراءة في سيرة ذاتيه

مها سليمان يونس

The Foundation of Modern Psychiatry in Iraq, Exploring Personal Archives

Maha Suliaman Younis

Abstract

This report aims to explore the beginnings of modern psychiatric services through scrutinizing the life profile of the pioneer psychiatrists in The Kingdom of Iraq.

Data was collected from the personal archive primarily together with personal interviews with some contemporary physicians and patients and scares documents.

Its realized by this study that the pioneer psychiatrists were the cornerstones of mental health establishments around the twentieth century through their contributions in government and private health centers ,also it showed that the personal archives can be helpful in analyzing the cultural atmosphere through historical facts .

المقدمة

أرتبط المرض النفسي في العراق كشأن المجتمعات العربية الأخرى بالمفاهيم الروحية والغيبيات كموامل مسببه وطريقة للشفاء في ان واحد ولعل معظم هذه المفاهيم قد استمدت جذورها من الموروثات إلثقافية و الإجتماعية الضاربة في القدم أكثر من التصاقها بجوهر و تعاليم الدين الأسلامي الذي يمثل الدين الرئيسي للسكان وعليه ساد الإعتقاد بالإستعانه بالمعالجين الروحيين ممثلين برجال الدين من المعممين (الشيوخ و السادة)، عند ظهور الإضطرابات النفسية وبالأخص الذهانية منها لما يعزى لهم من قدرة على السيطرة على المسبب لها كالجن أو الشياطين التي تتلبس المريض وتقلب تفكيره وسلوكه السوي وأحيانا عوامل الحسد(العين) وتأثير السحر (العمل) من قبل المعالجين الشعبيين[١]،إتبعت أساليب متعددة لطلب الشفاء منها تلاوة آيات من القرأن الكريم أو بعض التعاويذ مع لمس المريض (التعزيم) أو شرب أعشابًا معينه (السقوة) يرافقها على الغالب أو بشكل رئيسي ، التبرك بالأضرحة المقدسة (الزيارة) أو المبيت فيها برعاية أحد القائمين عليها لأيام عدة (الربط عند الأمام) كما هي التسميات باللهجة الدارجة لنيل شفاعته في الشفاء ، و لم تخلو هذه الممارسات من إيقاع الأذى بالضرب الشديد أحيانًا وما زالت قائمة حتى اليوم في القرى الفلاحية و المدن الصغيرة النائية على وجه الخصوص [٢].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المؤسسات الصحية الرائدة في الطب النفسي شهدت بداية القرن العشرين محاولات بسيطة لعلاج الأمراض العقلية و العصبية من قبل بعض أطباء الصحة العامة من العراقيين و البريطانيين العاملين في سلطة الإنتداب الإ أنها لم توثق وتبرمج كتخصص قائم بحد ذاته ومورست ضمن المستشفى العام الواقع في بغداد (المجيدي) نسبة إلى السلطان العثماني (عبد المجيد) و الذي سمي لاحقًا بالمستشفى الملكي بعد تأسيس الدولة العراقية .

غير أن البداية الحقيقية للطبابة العقلية الحديثة تمثلت بانشاء أول مستشفى للأمراض العقلية و العصبية أطلق عليها اسم دار الشفاء بعد تحوير بناية قديمة يعتقدبكونها اصطبلاً للحيوانات أصلاً كائنة في منطقة باب المعظم إلى يمين المستشفى الملكي العام في بغداد عام ١٩٢١ م إشتمل المبنى على ساحة وسطية كبيرة مكشوفة و قاعات صغيرة مسقفة مع أثاث بسيط وعددمحدود من الأسرة خصصت للمرضى العاجزين ، رغم ارتباطها و قربها من المستشفى المركزي إلأ أنها عدت بمثابة دار (حجر) لحجز و إيواء المعتوهين و المختلين عقليا و بالأخص ممن يشكلون خطورة في المجتمع والمصابين بحالات الهياج الشديد والقادمين من خارج العاصمة وكانت إجراءات إدخال المرضى تتم عن طريق الشرطة المحلية و بأمر قضائي من المحكمة الشرعية ويعتقد أن المراقبة التمريضيه لزوال النوبة الحادة كان هو المعيار الأساسي للتحسن السريري للمرضى ومن ثم إخراجهم ومما يثبت صحة هذه النظرية أن الأحصاء الشهرة لعدد المرضى الداخلين يقارب عد المرضى الخارجين والذين يدخل في ضمنهم عدد المرضى المتوفين حيث لم يحتوي المستشفى على سجل خاص بعدد و أسباب الوفيات رغم تكرارها و بالأخص في أيام البرد الشديد ، وقد أشارت الوثائق إلى استعمال علاج احداث الصدمات بحقن الوريدي للأنسولين الذي استبدل لاحقا بالعلاج عن طريق احداث الصدمات الكهربائية بالجهاز الخاص بذلك حوالي العام ١٩٤٠ مع بعض العقاقير الدوائية المتوفرة انذاك .

كان المستشفى ملحقًا اداريًا بوزارة الأشغال العامة وباشراف مديرية الصحة العامة التابعة لها من الناحية الطبية و الخدمية والعلاج كاملاً بالمجان وكما اسلفناسابقا أسهم بعض الأطباء العامين و الممرضين المؤهلين في إدارة شوونها ولم تكن فيها عيادة خارجية لفحص المرضى الجدد والمزمنين منذ تأسيسها وحتى زوالها، مما يدل على اكتسابها لصفة (الحجر) أكثر من دورها في التشخيص و العلاج وقد جرت بعض المحاولات لإجراء اصلاحات إدارية وخدمية إبان الأربعينيات ولكنها كانت عاجزة عن الإيفاء بمتطلبات الأعداد المتزايدة للمرضى و اكتظاظ البناية المتهالكة بهم حيث كان عدد المرضى ٧٩٥(٦٢٨من الذكورو١٦٧من الإناث) يعاني جلهم من أنتشارالأمراض الجلدية المعدية و انعدام وسائل الراحة كالنظافة و التدفئة ولربما ساهمت هذه الصورة الكئيبة في ترسيخ مفهوم الوصمة الإجتماعية المرتبطة بالمرض النفسي .

وقد ورد في تقرير الخبير الدولي في الصحة النفسية الذي تفقدها ضمن زيارته التفتيشية لمؤسسات الصحة النفسية في عراق عام ١٩٥٠ (الدكتور كراوس) جوب إبدالها بمستشفى واسع وجديد وعلى س علمية حديثة ولم تمضي ثلاثة اعوام حتى تحقق هذا الهدف بأفتتاح مستشفى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(الشماعية) للأمراض العقليةعام ١٩٥٣ في ضاحية شرق بغداد بسعة ٤٠٠سرير ابتداءًا ثم أستمرت في التوسع و التطوير لتصل إلى ١٣٠٠ سرير مع عيادة خارجية وعدة اقسام متخصصة و في عام ١٩٦٠ تم هدم بناية مستشفى دار الشفاء بالكامل و نقل جميع النزلاء إلى مستشفى الشماعية الجديد[٣].

أخذ الوعي بالطب النفسي يتزايد مع تأسيس عيادة خارجية للأمراض العصبية ملحقة بالمستشفى التعليمي الملكي ليومي السبت و الخميس بأشراف المرحوم الدكتور هاشم الوتري الذي تولى عمادة كلية الطب لاحقا و التي بدأت بواقع يومين في الأسبوع لتتوسع إلى عيادة مزدحمة بالمرضى للحالات العقلية و العصبية على حد سواء طيلة ايام الأسبوع مع كونها مركزًا لتدريب طلبة الصف الخامس (المنتهي) عام ١٩٣٦ و قيل أن عدد المراجعين اليومي كان يتجاوز المائة ،علمًا أن التدريس النظري لمادة الصحة العقلية كان مدرجًا ضمن المنهاج التدريسي للكلية عام ١٩٢٩ باشراف المحاضر البريطاني لطب الجملة العصبية [٤].

إضافه إلى هذا اشتملت بناية المستشفى العسكري الملكي على عيادة خارجية للأمراض العقلية و العصبية و ردهة لإدخال المرضى من أفراد القوات المسلحة مطلع الأربعينيات [٥] .

بعد إنشاء مستشفى الشماعية لإيوا. المرضى المزمنين بالدرجة الأولى ظلت الحاجة مستمرة لأنشاء وحدة تعليمية و علاجية للأمراض النفسية الحادة ونظرًا لغياب التخصيصات المالية لإنشاء مبنى خاص فقد تم تحوير الردهة الثالثة في المستشفى التعليمي الملكي إلى قسم خاص لرقود المرضى العقليين اشتمل على ٢٢ سرير و على أسس علمية و خدمية لائقة بقرارصادر من لجنة تنسيقات التدريسات السريريةفي المستشفى الملكي الطبي المكونه من العميدومدير المستشفى وبإدارة الأطباء الإختصاصيين ،الدكتور جاك عبودي والدكتور صفاء الدين حامد و الدكتور علي كمال (الفلسطيني الجنسية) عام ١٩٥٣[٥] .

الى جانب المراكز الحكومية المجانية أنفة الذكر ساهمت العيادات الخاصة في خدمة المرضى النفسيي وأولهاهي عيادة الدكتور جاك عبودي المتخصصة لعلاج الأمراض العقلية و العصبية و التي افتتحها في مايس ١٩٣٤ في منطقة رأس القرية وسط بغداد ثم توسعت فيما بعد لتشتمل على حوالي ١٠ اسرة لرقود الحالات الحادة وقد تطورت هذه العيادة إلى مستشفى خاص للأمراض العقليةلأول مرة في العراق عام ١٩٤٤ مزود بأسرة وكادر تمريضي وقسم للعلاج بالصدمات الكهربائية وسيارة اسعاف لنقل المرضى الطارئين سمي ب(دار الرشيد) ويعتقد أنه أغلق نهائياً في نهاية الستينيات و سنستعرض أدناه السيرة الذاتيه لمؤسسه .

رائد الطب النفسي في العراق

ولد المرحوم الدكتور جاك عبودي شابي عام ١٩٠٨ من عائلة يهودية عراقية في البصرة ودرس الأعدادية في كلية الملكة فكتوريا في الإسكندرية –مصر وتخرج ها عام ١٩٢٥بتفوق ثم عمل موظفًا كوميًا بعنوان في مديرية المساحة العامة ثم استقال لينضم إلى كلية الطب الملكية العراقية في بغداد عام ١٩٢٧ ليتخرج بعدها في الدورة الأولى ٢٨-٧ ١٩٣٢ بالترتيب الثاني ضمن ثمانية ناجحين من اليهود و النصارى و المسلمين تم تسجيلهم ونيلهم إذن الممارسة الطبية وفقًا للمادة ١٣ من قانون ممارسة الطب ما لبث أن التحق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالبعثة الدراسية على نفقة الحكومة العراقية إلى بريطانيا لنيل شهادة الاختصاص في الأمراض النفسية (D.P.M), ليعود بعدها في ١٦-٢-١٩٣٤مباشرًا وظيفته في مستشفى الأمراض العقلية (دار الشفاء) كأول أختصاصي في الطب النفسي في القطر وكلف باقيام بالتدريب السريري لطلبة كلية الطب بلقب (معاون محاضر) بعد منحه لقب الأختصاص من قبل مدير الصحة العام وافتتح عيادته في نفس العام وفق ضوابط ادارية في ضرورة ممارسة المهنة في حدود التخصص وبعد الظهر تحديدًا ويعد أول من استعمل العلاج بالصدمات الكهربائية في عيادته الخاصة عام ١٩٤٤ حسب الوثيقة الصادرة من دائرة الإستيراد.

انتدب للعمل في تدريس مادة الصحة العقلية في كلية الطب بعد منحه لقب (محاضر) في ١٩٣٩ رفع بعدها إلى لقب (استاذ مساعد)عام ١٩٤٢ ثم كلف رسميا بتولي إدارة مستشفى دار الشفاء عام ١٩٤٢بأمر من وزير الشؤون الإجتماعية وبعد قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ ، رفض الهجرة وتمسك بجنسيته العراقية وحصل على جواز سفر خدمه وتسهيلاً حكوميًا بسفر وعائلته تقديرًا لمكانته العلمية ،مثل العراق في مؤتمر للطب النفسي في لندن ومؤتمر للجراحة العصبية في لشبونه عام ١٩٤٨.

في ٣-٤- ١٩٥٤ أحيل إلى التقاعد حسب طلبه لأصابته بمرض تصلب الشرايين وورد في تقريره السري الصادر من عمادة كلية الطب أشاده بحسن سلوكه وانضباطه الوظيفي وتولى الدكتور معمر الشابندر بعده إدارة مستشفى دار الشفاء حتى زوالها عام ١٩٦٠ .

تفرغ تماما للعمل في عيادته ومستشفاه المزدحمة دائما بالمرضى من كافة أرجاء القطر وبعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧ اختزل ممارسته الطبية إلى أضيق الحدود وانكفأ في داره معظم الأحيان ولم تشير المعلومات المتوفرة إلى تعرضه لمضايقة سياسية أو قانونية أو من قبل الناس ، حتى غادر القطر نهائيا بموافقة من مدير الأمن العام آنذاك إلى بريطانيا عام ١٩٧٢ حيث عمل كطبيب نفسي في سجن (بركستون) في لندن حتى وفاته هناك عام ١٩٨١ .

الأستنتاج

دلت هذه الدراسة على جملة من الأستنتاجات منها :

١-أن المؤسسات الصحية الرائدة في مطلع القرن العشرين ، قد نجحت في استقطاب المرضى على الرغم تدني مستواها العلمي و الخدمي وانتشار الجهل بطبيعة الأمراض النفسية و بذلك تكون قد ساهمت في نشر الوعي الصحي لدى العامة وخلق ثقتهم بها كونها حكومية ومجانية ويمكننا اعتبارها الركيزة الأساسية لنظام الطب النفسي في العراق .

٢ –أن إنشاء برنامج تعليمي و تدريبي
كومي في الطب النفسي داخل وخارج
طر ومنذ الثلاثينيات قد ساهم إلى حد
ير في تشجيع أجيالاً عديدة من الأطباء للتخصص في هذا المجال .

٣-أشارت الوثائق الأرشيفية إلى وجود الضوابط الإدارية و الرقابية على السلوك المهني للأطباء في الممارسة الوظيفية و العمل لخاص رغم ندرتهم وحداثة النظام الصحي مما يدل على قيام وجود نوع من الرقي و العصرنه في الآداب المهنيه قبل تأسيس النقابات و الجمعيات .

٤-أضطلع أول الأطباء المتخصصين بالطب النفسي بدور رئيسي في تحسين صورة المرض العقلي واخراجه من دائرة الشعوذة عن طريق اصلاحاته الأدارية و

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التزامه بممارسه تخصصه حصرًا في أول عيادة طورت لاحقًا إلى أول مستشفى أهلي وعلى أسس عصرية ولا يغفل دورها في إسناد الجهد الطبي الحكومي في وقت مبكر قياسًا إلى الوضع العام في العديد من المجتمعات العربية المشابهة .

٥-يستشف من تلك السيرة الذاتية لرائد الطب النفسي صورة عن جو التسامح الديني المتأصل في نفسية الفرد العراقي و تعايشه مع الأقليات الدينية و العرقية حيث لم تقف حقيقة انتماءه إلى الطائفة اليهودية عائقاً أمام بزوغه في المجتمع واكتسابه لحب واحترام السلطة و الجمهورفي عهد شهد تقلبات سياسية عديدة .

توصي هذه الورقة بأعداد قاعدة معلومات لسير الأطباء الرواد في الوطن العربي وتوظيف المعلومات المستحصله منها في تحليل المناخ الثقافي و الإجتماعي المحيط بمفاهيم الطب النفسي .

الخلاصة

تهدف هذه الورقة إلى توثيق تاريخي لبدايات منظومة الطب النفسي المعاصر من خلال دراسة السيرة الذاتية لأول طبيب نفسي في المملكة العراقية .

استخدمت المضيرة الشخصية للطبيب الرائد كمصدر أساسي للمعلومات مع المقابلات المباشرة لبعض الأطباء و المرضى ممن عاصرو ا تلك الفترة وقلة من التقارير المعنية

أوضحت هذه الدراسة الدور الرئيسي الذي قام به الأطباء الرواد في تكريس مفهوم عصري للصحة النفسية في بدايات القرن العشرين من خلال عملهم في إنشاء مراكز علاجية وتدريبية حكومية و إسهامهم في خدمة المريض النفسي في القطاع الخاص أيضا كما أشارت إلى ضرورة الأستعانه بالوثائق الشخصية من أجل دراسة و تحليل الوقائع التاريخية المتعلقة بالطب النفسي ومحاولة فهم المناخ الإجتماعي و الثقافي المحيط بها .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

References

1-Younis MS . Psychiatric Clues With Historical Roots in Iraq, The Arab Journal of Psychiatry. Vol,12 ,No .2 ,November 2001.
2-Bazzoui W , Al-Issa I . Psychiatry in Iraq. Brit.J.Psychiatry 112(489) ;827. 1966 .

المراجع العربية
٣- تاج الدين ، محمد (١٩٧٨) . من مضبرة الماضي (دار الشفاء) ،مجلة الرازي ،العدد الأول ،السنة الأولى : جمعية أطباء الأمراض العصبية و العقلية العراقية .بغداد
٤-الفكيكي، أديب (١٩٩٣) . تاريخ أعلام الطب العراقي الحديث ،الجزء الثاني ،الطبعة الأولى .دار الحرية للنشر. بغداد .
٥-الدكتور جاك عبودي (الأضبارة الشخصية)قسم الأرشيف ،عمادة كلية الطب .بغداد .
٦-ألمنهاج التدريس لكلية الطب الملكية العراقية ١٩٢٩ . الدكتور سعد هاشم الوتري .مقابلة شخصية . بغداد .
٧-ألدكتور علاء الخالدي (أستاذ علم العقاقير-جامعة بغداد) .مقابلة شخصية .بغداد .
٨-الدكتور طارق خماس (استشاري الطب النفسي-أبوظبي) مراسلات شخصية .

Correspondence:
Dr. Maha Suliaman Younis
F.I.C.M.S ,C.A.B.P
Assistant professor in psychiatry-Faculty of Medicine –Baghdad University
Baghdad-Iraq
Maha.younis@gmail.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com